المحاضرة الثالثة: وظيفة الشعر عند النقاد العرب القدامى

مقدمة:

السؤال عن وظيفة الشعر قديم قدم الشعر نفسه؛ لأن الشعر ارتبط منذ نشأته بتحقيق غايات معينة يهدف إليها الشاعر من خلال بنائه اللغوي. وقد اختلفت هذه الغايات باختلاف الاتجاهات الفكرية، والنظريات النقدية التي تعالج مفهوم الشعر، وتأثيره في الحياة .ولكن جماع الآراء المختلفة التي طرحت في بيان وظيفة الأدب أولا ووظيفة الشعر ثانيا انطلقت من منزعين اثنين:

أحدهما : يذهب إلى أن الفن عموما والأدب والشعر فرع منه، وظيفته التعليم والتهذيب، وتحقيق هدف اجتماعي، إصلاحي، إعلامي، فهو أداة نافعة بشرط أن يحسن تجنيدها في خدمة المجتمع وتربية الأجيال.

ثانيهما : يرى أن الفن للمتعة والإطراب، وهو مجرد عن الغاية النفعية، وقد يغلوا أصحاب هذا الاتجاه فيذهب بعضهم إلى حدّ القول إن النفعية تفسد الفن.

وذهب قوم إلى الجمع بين غايتي المنفعة والمتعة، ورأوا أن إحداهما لا تتحقق إلا بوجود الأخرى وصرّحوا بقولهم "إنما هم الشاعر أن يُعلم ويُمتع، ولذلك ذهب سِدْني في دفاعه عن الشعر إلى البحث في كل نوع منه وتقديره بالنسبة لأمره، فالشعر البطولي سيد الأنواع الشعرية لأنه أقدرها على إذكاء الرغبة في العقل ليطمح إلى المعالي.

وقد أبعد أفلاطون الشعراء من مدينته الفاضلة لأنه كان يظن أنهم يملأون عقول الناس بالأوهام والخرافات كما يصرفون الناس عن جد العمل إلى هزل القول، فكان الشعر مع أفلاطون بلا وظيفة.

أما تلميذه أرسطو قد ربط وظيفة الشعر بالطبيعة الإنسانية في بحثها عن المتعة والإحساس بالجمال فقال " :يبدو أن الشعر على العموم قد ولّده سببان و أن ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية، فإن المحاكاة أمر فطري موجود في الناس منذ الصغر، ثم إن الالتذاذ بالأشياء المحكية أمر عام للجميع.

إذا أمعنا النظر في تاريخ الأدب العربي عامة والنقد العربي خاصة فنجد أن وظيفة الشعر اختلفت باختلاف الزمان والمكان والأشخاص؛ إلاّ أن هناك وظائف معينة اشتهرت بين النقاد، وهذه الوظائف بعضها كانت عامة لا تختص بزمن دون زمن وبإقليم دون إقليم في حين أن بعضها كانت مخصوصة بزمن أو بإقليم .وفيما ما يلي نقدمها بشيء من التفصيل.

1-الدفاع عن القبيلة:

من أبرز وظائف الشعر وأقدمها وظيفة الدفاع عن القبيلة؛ لأنّ الشاعر يحامي عن القبيلة ويدافع عنها بالقول المؤثر النفاذ، فكأنه رجل الإعلام، أو صحفي هذا الزمان، يفتخر بمآثر القبيلة، ويدافع عن سياستها ويمجدها، ويصور قوّتها ويهاجم الأعداء المتطاولين عليها، وقد صور أبو عمرو بن العلاء فرط حاجة العرب إلى الشعر قائلا " الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهوّل على عدّوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب غيرهم".

والواقع أن الشاعر في العصر الجاهلي " شخص منزلته تفوق منزلة البشر عموما أو قل إنه " نبي قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب، وظيفته الأساسية والطبيعية أن يكون لسان عشيرته، " يحمي عرض بني قبيلته ويخلد بلادهم ويشارك في المعارك راشقا العدو بسهام شعرية لها قوة خارقة للعادة"ويصنع معرفتها وعلمها، فيتغنى بأمجادها وأيامها وأنسابها وبمعتقداتها، ويحمي شرف الدم والعرق، إنّه مرآة تنعكس عليها الصورة المثالية للجماعة القبلية. كانت هذه الوظيفة من الوظائف في العصر الجاهلي، ولما جاء الإسلام وانطفأت نار العصبية القبلية تحوّلت عن حماية القبيلة إلى حماية الدين والمذهب .حيث يستخدم الشاعر موهبته الشعرية لحماية دينه ومذهبه.

2-مصدر المعرفة "ديوان العرب":

من المعلوم أن الشعر خلاصة التجارب الإنسانية، مصدر للمعرفة، ووعاء للثقافة، ولذلك جعل العرب الشعر وعاء تجاربهم، ومستودع حكمتهم، وهو ديوان معارفهم وعلومهم، وتكثر استعمال عبارة " الشعر ديوان العرب "التي تعنى بمصطلح العصر " دائرة معارفهم ."والديوان عند العرب لفظ له دلالة مشتركة تحيل إلى السجل الذي أخذ معنى مجازيا عند الجاحظ بمعنى الديوان الذي يحفظ تراث العرب.

قد أحس النقاد العرب بالقيمة المعرفية للشعر العربي منذ وقت مبكر جدا، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجعل الشعر أصح علم عرفته العرب يقول " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ". وقال ابن فارس" :الشعر، شعر العرب، ديوانهم وحافظ آثارهم، ومقيد أحسابهم ."وقال الثعالبي " : كان يقال : الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها، وكنز آدابها" . وجعل عبد الكريم النهشلي الشعر سببا أساسيا لبقاء تاريخ القبائل ومآثرها قائلا " :فلولا الشعر لم يقم بهذه الأفعال علم، ولا رفع لها منار، ولدرست آثارها، كما درس كثير لم يقيده الشعر، كالذي نسي من أفعال بني حنيفة وعجل، إذ لم يكن فيهم شعر، فدخلوا في جملة الخاملين". وكذلك ابن طباطبا العلوي رأى أن المهمة الأساسية للشعر هي أنه مصدر صادق لمعرفة المثل والتقاليد العربية، "فقد أودع القوم في أشعارهم حصيلة خبرتهم من أحداث وعادات، فهو إذن وثيقة معرفية لحياة العرب، وثقافة لا بد منها لكل متأدب يريد أن يعرف تراث أمته وحضارتها".

الخلاصة إن الشعر ديوان تراث العرب، ومادة تاريخهم وسجل حياتهم، ولذا حرصت العرب على حفظ أشعارها لتأخذ العبرة منها وتوثق العلاقة بين حاضرها وماضيها، ولتكون معلما وهاديا للأجيال القادمة، يتعلمون منها المجد والشرف.

3-الحكمة:

إن الشعر عند العرب مصدر الحكمة والتربية والتهذيب، وكان الشاعر يربّي قومه على القيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة، ويزجرهم في الوقت نفسه عن الأفعال الدنيئة يقبّح البخل فيحمله على السخاء، ويسفه الجبن فيحمله على الجود، ويُنفر من الفواحش والمنكرات ومذموم الخصال، فتشب النفس على الفضيلة، وتسمو في مدارج الرفعة والخير.

والشعراء يقومون بدور الأساتذة والمصلحين، وهم يرشدون الناس بشعرهم ويجعلون سبل المكارم ممهدة لطلابها، ولذا قال العلوي" إن الشعراء يحضّون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وإنهم سنّوا سبيل المكارم لطلابها، ودلّوا بناة المحامد على أبوابها". ولارتباط الشعر بالحكمة كانت العرب لا تعد الشاعر فحلا حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره.

4. فهم القرآن والسنة:

كان الشعر العربي مدخلا مهما لفهم الأسرار القرآنية، وفك رموزه ودقائقه، وكان عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما دائما يفسّران القرآن بالشعر الجاهلي. روي عن عمر أنه سأل مرة عن معنى قوله تعالى : "أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ" فقام شيخ من هذيل وقال: هذه لغتنا، التخّوف التنقص فقال عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال نعم وروى قول الشاعر:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَفَنُ

[التامك: المرتفع من السنام، والقرد: المتلبد بعضه على بعض. والنَبْعُ: شجرٌ تُتَّخَذُ منه القِسِيُّ. السَّفَنُ : الحديدة التي تُبرد بها القِسي]

فقال عمر لأصحابه " : عليكم بديوانكم .قالوا : وما ديواننا ؟ قال:"شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم".

وأما ابن عباس رضي الله عنهما فكان كثير الإحالة على الشعر العربي لأجل فهم القرآن الكريم، وقد آثرت عنه أقوال كثيرة تعبر عن هذا المنزع .قال : "إذا تعاجم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر عربي". وقال " :إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب". وكان ابن الأزرق يسأل ابن عباس رضي الله عنهما عن أشياء من القرآن فيجيبه، فيسأل ابن الأزرق من ابن عباس الدليل على ذلك من كلام العرب، فينشده ابن عباس شعرا.

سأل ابن الأزرق عن قوله تعالى"فمنهم من قضى نحبه" قال : أجله الذي قدر له .قال : وهل قالت العرب ذلك؟ قال :نعم، أما سمعت قول لبيد:

ألا لا تسألن المرء ماذا يحـــــاول أنحبٌ فيقضى أم ضــلالٌ وباطلٌ

ولذا جعل علماء علوم القرآن والتفسير معرفة الشعر الجاهلي شرطا من شروط المفسر والمفتي .قال الإمام الشافعي : "لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، ثم يكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله– صلى الله عليه وسلم –ويكون بصيرا باللغة، بصيرا بالشعر" وقال السيوطي:" وليعتن بحفظ أشعار العرب، فإن فيها حكما ومواعظ وآدابا، وبها يستعان على تفسير القرآن والحديث". وقال ابن فارس :الشعر ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تُعلّمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله عزّ و جلّ وغريب حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم –وحديث صحابته والتابعين رحمهم الله تعالى".

5–التهذيب والتربية:

لا شك أن الأدب يؤدي دورا كبيرا في تهذيب النفوس وتربية الخُلق، وأن الدور الخلقي للأدب قد تعمّق بمجيء الإسلام. وقد صرح الخلفاء الراشدون والعلماء الكبار والنقاد بأن دور الشعر في إصلاح النفس، وتهذيب السلوك، واستثارة مشاعر الخيرة والأحاسيس النبيلة، ونهى عن الأفعال الخسيسة والخصال الذليلة مما يجعله مادة تربوية تعليمية هامة .قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه –في تسويغ الحثّ على تعليم الشعر":علموا أولادكم الشعر، فإنه يعلمهم مكارم الأخلاق".

وقال عمر بن الخطاب– رضي الله عنه:"تحفظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جليل الفعال، ويفتق الفطنة، ويشحذ القريحة، وادّخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجر عن مواقعة الريّب، ويحض على معالي الرتب".

6–الوظيفة النفسية:

قد ربط النقاد العرب الذين تغلبت عليهم النزعة الفلسفية والعقلية الشعر بالغايات الخلقية مثل الفارابي وابن سينا وابن رشد ومسكويه وحازم القرطاجني .وهم تحدثوا كثيرا عن تأثير الشعر، وامتداد سلطانه، وصرّحوا بأن للشعر نفاذ في عمق النفس، فيحدث فيها من التأثير ما يشبه السحر، لأنه فن ممتع لذيذ، يمتلك قيما جمالية متميزة.

وقد صرّحوا أيضا أن الشعر يُثير المشاعر النبيلة الخيّرة، فيحمل النفس على الطرب للفضيلة، والانقباض من الرذيلة، ثم يتعدى الأمر هذا الانفعال النفسي إلى سلوك عملي، ومواقف فعلية، يُحمل فيها المتلقي على نقيض ما كان عليه من دنايا وانحطاط، فيسخى بعد الشح، ويشجع بعد جبن، ويستبشر بعد انقباض.. وقال معاوية– رضي الله عنه –لزياد يحثه على تعليم ابنه الشعر:" ما منعك أن تروّيه الشعر؛ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل".

قد ربط النقاد الفلاسفة الشعر، بالأثر النفسي؛ لأن الشعر عندهم نشاط تخيلبي مؤثر، والتخييل ذو قدرة على إحداث التأثير في النفس، متمثلا في قوة استجابتها حبا وكرها .فالشعر عند حازم كلام موزون مقفي، من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، وخير الشعر ما حرك المشاعر النبيلة، والعواطف الخيرة، وإن الالتذاذ بتخييل الفضائل شرط يقصد إليه في الشعر.

7. الشعر وعاء اللغة:

قد أشار النقاد القدامي إشارات واضحة إلى دور الشعر في حفظ اللغة وإثرائها، إذ إن الشعر وعاء اللغة ومستودعها، ولذا كان مادة أساسية في تعليمها، وتنمية الملكة البلاغية، وتفصيح اللسان .ولذا سأل معاوية– رضي الله عنه –الحارث بن نوفل" : ما علّمت ابنك ؟ قال : القرآن والفرائض .فقال روّه فن فصيح الشعر، فإنه يفتّح العقل ويفصّح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة."

في الأخير لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن التخييل هو أساس الشعر وجوهره، فالشعر يتناول الخير وضده ومهمته تحريك النفوس، ولما كانت التجربة الشعرية تبدأ بانفعال نفساني فإن الاستجابة عند المتلقي تبدأ هي الأخرى بانفعال نفساني، ومن هنا فليس من مهمة الشعر أن يتناول الموضوعات المعرفية الأخلاقية من زاوية المنظور المعرفي القائم على المقدمات والحجج والنتائج، فذلك أبعد ما يكون عن طبيعة الشعر، فالشاعر إنما يتعامل في علاقته بالكون والحياة والإنسان من زاوية رؤيته الفلسفية الخاصة التي ينفرد بها، ويبرز هذا التفرد في قدرة الشاعر على تشكيل قضايا الكون والحياة والإنسان تشكيلا جديدا يصبح الجانب المعرفي الأخلاقي فيه جزءا جماليا فاعلا في لحمة الشعر وسداه.